المحاضرة الأولى: التجربة السوسيولوجية في الجزائر

مقدمة: ظهر علم الاجتماع في القرن 14م في الشمال الافريقي على يد العلامة العربي المسلم " عبد الرحمان ابن خلدون" في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وبدأت ملامح هذا العلم تتشكل عنده لما بحث في أحوال المجتمعات الإنسانية في ذلك الوقت وحلل خصائص ومميزات كل مجتمع كل مجتمع كالعرب والعجم وأحوال البربر، والبدو والحضر، وتطرق بالتحليل إلى أسباب رقي بعض الدول والمجتمعات وانحطاط البعض وزوال أخرى.

كما درس الأنماط السلوكية التي تميز كل مجتمع كالعصبية والخشونة والاغارة التي كانت تميز بعض المجتمعات البدوية دون غيرها.

وإذا تكلمنا عن التجربة السوسيولوجية في الجزائر فإننا نتحدث عن أقدم تجربة سوسيولوجية في التاريخ التي تحدث عنها العلامة ابن خلدون وأسقط تحليلاته الميدانية على المجتمع الجزائري، ثم مع مرور السنين والأزمنة شهدت الجزائر أحداث كثيرة شكلت منعطفات حاسمة في سيرورة تحول وتغير الأبنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري ضمن محطات تاريخية شهدتها الجزائر التحليل السوسيولوجي الذي أسقطه ابن خلدون عن المجتمع الجزائري بتحليلاته وأرائه واستنتاجاته العلمية في الحركية والديناميكية التي كان المجتمع الجزائري يمر بها عبر الفترات الزمنية التاريخية، حيث قراءاته وتعقيباته تلك تحاكي وتبرز الأوضاع والظروف التي شهدتها الجزائر من أحداث كثيرة شكلت منعطفات حاسمة في سيرورة التحول للمجتمع الجزائري.

رغم أنه لم يصلنا إلا القليل منها بسبب ويلات الاحتلال الفرنسي طيلة قرن وثلاثين سنة، حيث قامت فرنسا آن ذك بإعادة دراسة كل أحوال المجتمع الجزائري ولكن خدمة للكولونيالية الفرنسية[1] من أجل بسط سيطرتها على أبناء الجزائر، بنفس التحليل الذي توصل إليه ابن خلدون أثناء دراسته للمجتمعات القديمة.

---

[1] هي امبراطورية استعمارية هفها السيطرة على العالم ، ولديها مسنعمرات في مواقع مختلفة حول العالم، حيث كانت فرنسا في القرنين 19 و20 ثاني أكبر سلطة في العالم بعد الإمبراطورية البريطانية. بهدف الهيمنة الاقتصادية وفرض الدين واللغة وممارساته الثقافية الأخرى على الشعوب المستعمرة.

حيث أُدخل هذا العلم الجديد السوسيولوجيا إلى الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي مع العديد من الباحثين والسوسيولوجين الكولونياليين ليس من أجل تنوير الشعب الجزائري، بل لخدمة المطامع الاستعارية الفرنسية وبسط الاحتلال والسيطرة الفرنسة وهذا ما يطلق عليه اسم السوسيولوجيا الكولونيالية.

حيث مرت هذه التجربة السوسيولوجيا بالجزائر بأربعة مراحل أساسية ضمن متغيرات وفترات زمنية مرت بها الجزائر بداية من:

المرحلة الأولى: السوسيولوجيا الكولونيالية (ابان الفترة الاستعمارية)

هي تلك الدراسات والأعمال التي التي أجريت خلال المرحلة الاستعمارية في الجزائر والتي عملت على دراسة المجتمع الجزائري والبحث في بِنياته الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وذلك محاولة منها لفهم الميكانيزمات والآليات التي تتحكم في البنى التي تضبط وتسير أفراد المجتمع الجزائري.

إذ عملت السلطات الفرنسية على دراسة البناء الاجتماعي القائم، والبحث عن جوانب القوة ومواطن الضعف في هذا البناء، إذ عملت على تجنيد الكثير من العملاء والباحثين السوسيولوجيين والأنثربولوجيين والضباط الأكاديمين، وذلك بغية هدم ذلم البناء وتكيكه ومحو مقوماته الروحية والوطنية (الأرض، السيادة، الدين ، القيم الاجتماعية...)،

وبدأت بزرع الأفكار الخاطئة والتشكيك ونشر الخرافات والبدع وانتهاج سياسة التجهيل ، لأن الكولونيالية الفرنسية أدركت أن المجتمع الجزائري لا يمكن زعزعته وخرقه إلا من خلال هدم ذلك البناء الاجتماعي المتين الذي جعل أفراد المجتمع متماسكين ومتضامنين فيما بينهم.

حيث قامت بدراسة كل المقومات الروحية والدينية والوطنية والعرقية والثقافية التي ساهمت في جعل المجمع لحمة واحدة وكسر العادات والأعراف والتقاليد المستمد والمتوارثة من أصالة المتجمع وعرقيته، الذي يشكل هوية وشخصية قومية وطنية واحدة دون إقصاء، فالعربي والقبائلي والمزابي والترقي والشاوي كلهم ينتمون تحت راية العروبة والإسلام.

حيث قام المستعمر الفرنسي بتفكيك تلك الروابط من خلال الإيقاع فيما بينهم وخلق النعرات والمشاحنات والصراع بين العروش والقبائل حتي يتناحروا فيما بينهم لكي يستمر ويستوطن

الاستعمار في سياسته، ومحاولته محو وطمس الهوية الوطنية الإسلامية التي تعتبر اقوى عدو للاستعمار، ونشر خلق ممارسات عادات وتقاليد بالية كإطلاق تسميات على رجال الدين بسيدي والتبرك بهم وبالأضرحة والقبور والطواف بها.

مما أدى إلى تقوقع أفراد المجتمع على بعضهم البعض واصبحوا يؤمنون بالخرافات والشعوذة.

كذلك نشر الجهل والأمية بين أفراد المجتمع الجزائري واتباع سياسة الأرض المحروقة، تعذيب وتجويع وحرمان، فقر ونفي وقتل القادة السياسين ورجال الدين، وتحويل المساجد إلى اسطبلات وطمس معالم القرآن الكريم، تدنيس المقدسات الدينية تحريف وتزييفات دينية للحقائق عن طريق خطة التبشير للمسيحية من قبل قساوسة ورهبان مسيحيين،

كذلك دس عملاء جزائريين لخدمة فرنسا يتبعون أخبار الثوار والمجاهدين

حيث كان هناك من الباحثين الفرنسين قاموا بدراسات جادة وواقعية لتغيرات والضوابط التي تحكم المجتمع الجزائري منهم عالم الاجتماع "جاك بيرك" (1910،1995) وغيرهم من الباحثين حيث درس الميكانيزمات الداخلية والظاهراتية للمجتمعات وعلى العلاقات القبلية واعتبرها خصوصية اجتماعية مغاربية بالتحليل والمقارنات والاحصائيات.

وبهذا دخلت السوسيولوجيا إلى الجزائر عن طريق الكولونيالية الفرنسية بغض النظر عما إذا كانت هذه الدراسات موجهة لخدمة أغراض الاستعمار الفرنسي في تلك الفترة

حيث تم إحداث علم الاجتماع في جامعة الجزائر سنة 1952 وتابع الكثير من الباحثين والأساتذة آن ذاك المسيرة السوسيولوجية في الجزائر وشمال إفريقية خاصة بد الاستقلال.

المرحلة الثانية: مسيرة علم الاجتماع بعد الاستقلال (1963، 1970)

بعد الاستقلال خرجت الجزائر محطمة في شتى الجوانب نظرا لما خلفه الاستدمار الفرنسي، حيث أصبحت الجزائر تعيش كمجتمع وكدولة أزمة حادة لم تشهدها في تاريخها ازمة تهدف إلى نسف أسس المجتمع، وهدم أركان الدولة إن لم يتم تداركها ومعالجتها وإيجاد الأساليب والاستراتيجية المناسبة من عدة جوانب وأبعاد وكشف أليات تتجاوز هذه الأزمة ومواجهة والتصدي لمختلف الأخطار،وفق أربعة أبعاد رئيسية هي البعد الاقتصادي والبعد السياسي والبعد السكري وأخيرا البعد

الاجتماعي والثقافي، صياغة سوسيولوجية كشف الجذور العميقة لهذه المحنة أو الأزمة وامكانيات تجاوزها.

في هذه المرحلة التي أعقبت استقلال الجزائر حيث كان علم الاجتماع يدرس بجامعة الجزائر ضمن آليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية من طرف مجموعة من الأساتذة منهم: عبد الرحمان بوزيدة، عبد الغني مغربي، فاروق عطية، كلودين شولي، نور الدين حقيقي، سيدي بومدين محفوظ سماتي وغيرهم... هؤلاء الرواد الأوائل لعلم الاجتماع بالجزائر ويطلق عليهم اسم الجيل الأول حيث تتلمذوا على يد مجموعة من الباحثين الكونياليين.

ومن أهم المميزات التي تميزت بها هذه المرحلة من مسيرة علم الاجتماع الجامعة الجزائرية كانت تابعة للمدرسة الفرنسية **موضوعا ومنهجا**، وكان النظام التعليمي الجزائري مرتبطا ارتباطا وثيقا بالجامعة الفرنسية، من حيث البرامج والغايات والاستراتيجيات، كما ظل التوجه الفرانكفوني للخطاب السوسيولوجي قائما حتى عام 1971، كعلم يعنى بالتنظير وهو يفتقر للدراسات الميدانية الواقعية، ويعمل على نقل الإرث السوسيولوجي الفرنكفوني إلى الطلبة المتكونين ويصب جل اهتماماته على أعمال المدرسة الدوركايمية غالبا ويكاد يقتصر على النقل دون التأصيل وعلى التحصيل دون التحليل.

وعلى الرغم من انتصار الثورة الجزائرية وإعلان الاستقلال إلا أن المقررات الفرنسية في السوسيولوجيا، ظلت تعالج مسالة الاستعمار على أنها مسألة إنسانية جاءت لخدمة أفراد الشعب الجزائري ونقل الحضارة من الضفة الأوروبية إلى شمال افريقيا، ففي هذه الفترة من مسيرة علم الاجتماع في الجزائر كانت متأثرة جداً من حيث المناهج والبرامج بالمدرسة الفرنسية وظلت السوسيولوجيا الكولونيالية تدرس في الجامعات الجزائرية وبدى واضحا من الكتابات والأعمال التي تمت في تلك المرحلة من طرف السوسيولوجيين من الجيل الأول وحتى الجيل الثاني، من حيث اللغة المستعملة، والخطاب الفرنكفوني الذي طغى عليه الطابع الدوركهايمي، وهذا نظرا لتتلمذ العديد من السوسيولوجيين الجزائريين على يد الباحثين الفرنسيين، وبالتالي لم يستطيعوا أن يحدثوا القطيعة وذلك للامتداد السوسيولوجي الكولونيالي.

المرحلة الثالثة: مسيرة علم الاجتماع في الجزائر(1971،1984).

هذه المرحلة شهدت تحولات كثيرة في الدولة الجزائرية والمجتمع بشكل عام حيث توالت العديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، (سياسة تأميم المحروقات، سياسة التعريب لقطاع التربية والتعليم العالي، والتشبث بالهوية الوطنية والدين الإسلامي).

حيث كانت هذه الممارسة السوسيولوجية التطبيقية في الجزائر جد غنية وثرية في هذه الحقبة والتدخل الفاعل في متابعة حجم التغييرات الحاصلة.

حيث تم رد الاعتبار للسوسيولوجيا الجزائرية من حيث القرارات والإجراءات المتخذة في حق هذا التخصص، وذلك بمحاربة كل ماهو تقليدي مورث والعمل على تحريك البحث العلمي لدراسة أسباب دفع عملية النمو الاقتصادي والرقي الاجتماعي، وهذا ما يختص به علم الاجتماع.

كذلك نجد المنشغلين بعلم الاجتماع في تلك المرحلة قد جُندوا للدفاع عن الأيديولوجية الاشتراكية أن ذلك تداعيا للأوضاع السياسية الغير مستقرة التي كانت تمر بها البلاد، أي أيديولوجية الحزب الحاكم، حيث نجد علم الاجتماع في هذه المرحلة قد تحول إلى من علم أكاديمي إلى علم علم أيديولوجي أي تنفيذا لسياسة الحزب الحاكم، واصبح محتوى الدروس فيه كله خطاب إيديولوجي يعمل على تمجيد الاشتراكية وتدنيس الرأسمالية والتوجه الإسلامي، كما أن كل التخصصات التي كانت تمارس لم تاتي صدفة أو لأغراض علمية بحتة، بل جاءت لتساير المشروع الاشتراكي الذي تبنته الدولة الجزائرية، فهكذا نجد علم الاجتماع العائلي والريفي جاء تجاوبا مع الثورة الزراعية ونفس الشيء لتخصص علم الاجتماع الصناعي الذي جاء خدمة للثورة الصناعية، التي أطلقها النظام آنذاك .

كذلك شهدت هذه الفترة انقسام الساحة السوسيولوجية إلى قسمين: علم اجتماع ثوري نقدي المتشبع بالإيديولوجية الاشتراكية الماركسية، وقسم آخر وقف في وجه الاشتراكية وأخذوا على المعسكر الرأسمالي تكوينهم السوسيولوجي، وهم الرجعيين البورجوازيين، وأصحاب الممتلكات من أراضي ورؤوس الأموال ومن العملاء التابعين للمدرسة الكولونيالية.

وبالتالي انقسمت الساحة السياسية والاجتماعية وفق هذين التوجهين وسار علم الاجتماع في اتجاهين متناقضين، في المقابل نجد نسبة ضئيلة من المنشغلين بعلم الاجتماع الذين عملوا على ممارسة السوسيولوجيا بشكل علمي محض وتعرضوا للمضايقات والتهميش والاقصاء والهجرة.

المرحلة الرابعة: مسيرة علم الاجتماع (من 1984 إلى يومنا هذا)

شكلت هذه المرحلة منعطفا حاسما بالنسبة لمسيرة السوسيولوجيا في الجزائر فعندما كان هذا العلم في المرحلة التي سبقت علماً نقدياً إيديولوجيا ثورياً، أصبح مع التوجه الليبرالي الجديد للدولة علماً منبوذاً، حيث أن الخطاب الرسمي في هذه الفترة قد تغير موقفاً وعملاً اتجاه العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة وأصبحت كل الأنظار متجهة نحو العلوم الطبيعية والتكنولوجية، باسم التنمية والتغيير.

- كذلك حدثت في هذه الفترة تغيرات وتحولات اجتماعية كبيرة شهدها المجتمع الجزائري، أحداث أكتوبر 1988، حيث خرج الشعب الجزائري إلى الشوارع مطالبا بالتغيير والديمقراطية، رافضا للواقع الاجتماعي المزري الذي أصبحت تعيشه الأسر الجزائرية، غير أنه في ذلك الوقت قامت بقمع تلك التظاهرات، فراح العديد من الأبرياء ضحية نتيجة العنف، وقد كانت الفرصة مواتية ليظهر علم الاجتماع في هذه المرحلة الحرجة بالذات ليحلل أسباب الانتفاضة وانعكاساتها على الصعيد الاجتماعي والسياسي.
- أما الحدث الثاني هو إعلان التعددية الحزبية في الجزائر، حيث شكلت منعطفا حاسما في تاريخها المعاصر، وتوجهت أنظار العالم نحو التجربة الديمقراطية الجزائرية الجديدة رغم الانتقادات، وشهدت الجزائر حركة حزبية وسياسية، حيث برزت أحداث أخرى متتالية ومتشابكة، انعكست بصورة مباشرة على الصعيد الاجتماعي وتشكل وعي فكري قومي لدى الشعب الجزائري الذي أصر على ضرورية التغيير، غير أنه وللأسف الشديد لم يتم التطرق لهذه الأحداث من طرف الأخصائيين الاجتماعيين ولم تنل تلك الأحداث اهتمام السوسيولوجين الجزائريين بالدراسة والتحليل وأضيفت انتكاسة أخرى.
- أما الحدث الثالث والمتمثل في دخول الجزائر بما يسمى العشرية السوداء، في فترة التسعينات، وهي الفترة التي حدث فيها الانقلاب الأمني وظهر فيها الإرهاب الذي أخذ في القتل والتدمير حيث أصبحت الجريمة والعنف تمارسان جهارا نهارا، ودمرت كل المكاسب

التي حققتها الجزائر المستقلة طيلة سنوات عديدة ودخلت الجزائر في حرب أهلية دموية راح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب الجزائري طيلة سنوات عديدة وتعطلت بالتالي مسيرة علم الاجتماع أكثر وشكلت كل القطاعات شلل تام بما في ذلك قطاع التعليم العالي، وتجمدت بذلك كل الأبحاث والدراسات عن سيرورة المجتمع الجزائري وبالتالي تغير آخر في بناء اجتماعي متدهور ومتصدع بالنزاع والفوضى،

- وبع سياسة المصالحة الوطنية والوئام المدني الذي أعلنته الدولة الجزائرية عادت المياه إلى مجاريها وأصبح هناك نوع من السلم والسلام، وبدأت القطاعات في التحرك ومنها قطاع التعليم العالي وأنشأت الأقطاب والجامعات ودبت ملامح التنمية وبدأ تخصص علم الاجتماع يدرس في كل جامعات الوطن.